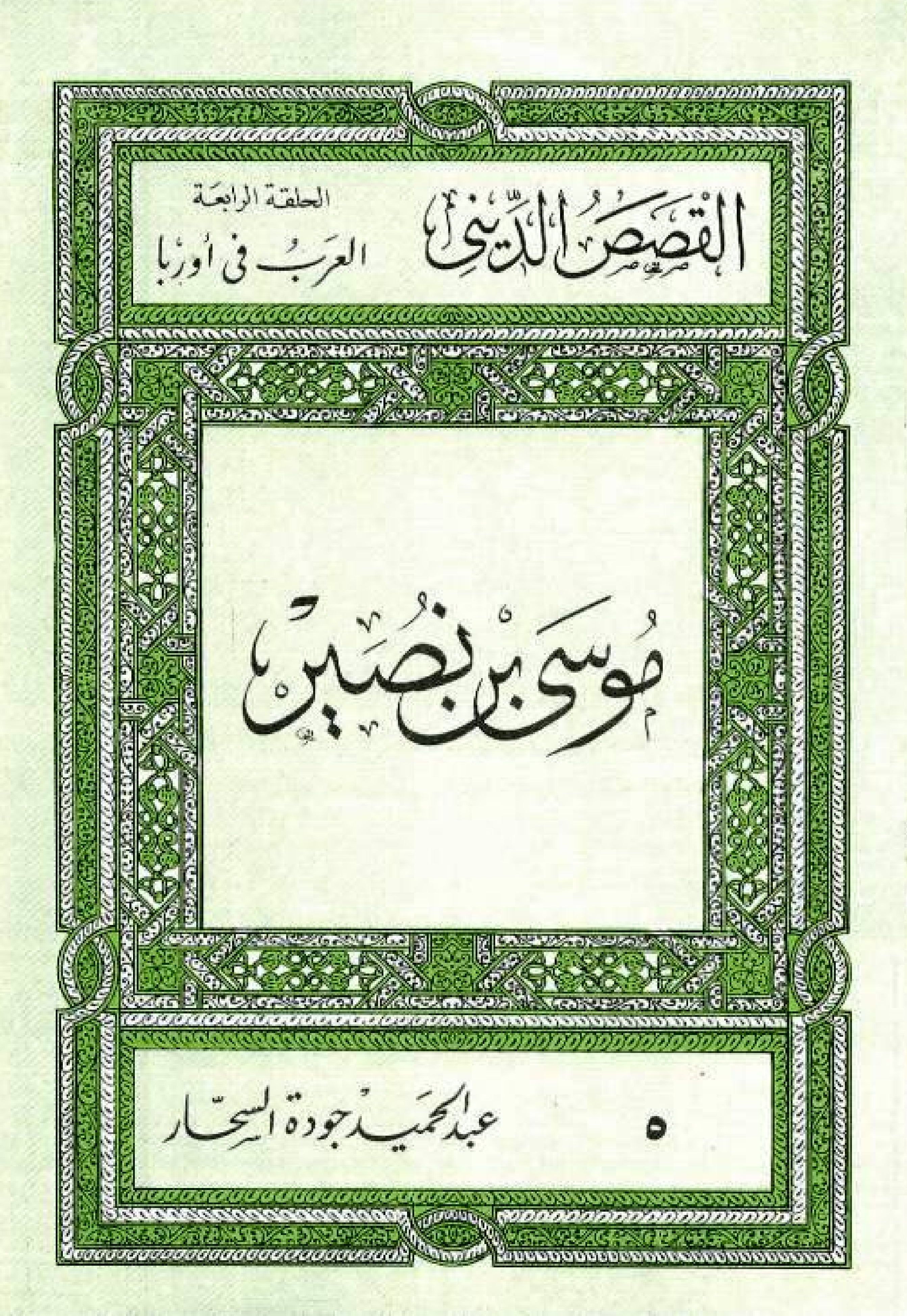


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
موسى بن نصير
عبد الحميد جودة السحار
٥

١

حاصر مُغيث ، الّذى بعثَه طارقٌ يستولِىَ على قُرْطُبَة ، الكنيسةَ الّتى تحصَّن بها الملك ، ثمَّ قطعَ الماءَ عنها ، فاستسلمَ المتحصنونَ فيها ، وفرَّ الملِك .

وبلغ خبرُه إلى مُغيث ، فبادرَ الرَّكْضَ خلفَه وحدَه ، فلحِقَهُ وتحتَه فرسٌ أصفر ، سريعُ الخَطْو . فالتفتَ الملِك ، ودُهِش لَمَّا رأى مُغيثًا قد لحِقَه ، وزاد فى حثِّ فرسِه ، فقصَّر به ، فسقط الملِك عن الفَرَس ، فترجَّلَ مُغيثٌ عن فرَسِه ، وقبضَ على الملِك الّذى كان يترنَّحُ من السَّقْطة ، وسلبه سِلاحَه وعادَ به أسيرا ، وحبَسَه عندَه ، ليَقْدَم به على أميرِ المؤمنين ، الوليدِ بن عبدِ الملِك .

٢

مضى جيشُ المسلمينَ إلى تُدْمير ، وكانت مدينةً حصينة ، وكان مَلِكُها داهية ، ودافع عن مدينتِهِ دفاعَ الأبطال ، فلمّا وَجدَ أن الهزيمةَ ستلحَقُ به ، انسحبَ مع يسيرٍ من أصحابِه لا يُغنونَ شيئا ، انسحبَ إلى « أُرْيوله » ، وراحَ يتحصَّنُ بها ، فلم يجدْ بها إلاَّ قليلاً من الرِّجال ، فأمر النِّساءَ بنشر الشُّعور ، وحَمْلِ القَصَبِ ، والظُّهورِ على السُّورِ في زِيِّ القِتال ، متشبِّهاتٍ بالرِّجال ؛ وتصدَّر قُدَّامَهنَّ في بقيَّةِ أصحابِه ، يُغالطُ المسلمينَ في قوَّتِه على الدِّفاع عن نفسِه . فكَرِه المسلمونَ قتالَه ، وعرضوا عليه الصُّلْح ، فأظهرَ الميلَ إليه ، ونكَّر زِيَّه ، ونزل

إليهم بأمان ، على أنّه الرّسول ، فصالحهم على أهل بلدِه ، ثمّ على نفسِه ، وتوثّق منهم فلمّا تمّ له من ذلك ما أراد ، قال لهم :

ـ أنا الملِك .

فقال بعضُ المسلمين :

ـ ولِماذا فعلتَ ذلك ؟

قال : « للإبقاء على قومى » .

وثارَ بعضُ المسلمين ، فقالَ لهم :

ـ لمْ نُعدْ نخشَى منكم شيئًا ، لقد عاهدتُم ، وإنّنا نعلمُ أنّكم تُوفُونَ بعُهودِكم .

وأدخلهمُ المدينة ، فلم يجدوا فيها إلاّ العِيالَ والذّرّيّة ، فَندِموا على ما أعطَوْه من الأمان ، ولكنّهم أُعجِبوا برَجاحةِ عقلِه ، ولم ينكُثوا وعدَهم

له ، فسلِمتْ عاصمةُ تُدْميرْ من شدَّةِ وطأةِ القِتال ، بفضلِ دهاء حاكمِها .

٣

انتهى طارقٌ إلى طُلَيْطِلَة ، عاصمةِ القُوط ، فألفاها خالِية ، وقد فرَّ عنها أهلُها ، ولجئوا إلى مدينةٍ بها خَلْفَ الجبل ، فمضى خافَ من فرَّ من أهلِ طُلَيْطِلَة ، فاقتحمَ المدينةَ الَّتى تحصَّنوا فيها ، فأصابَ حُلِيًّا ومالا ، وامتلأتْ نفسُ طارقٍ غبطْة ، فراح يترَنَّم بالشِّعر ، قال :

رَكِبنا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا
عسى أن يكونَ اللّهُ مِنّا قد اشترَى
نفوسًا وأموالاً وأهلاً بجنَّةٍ
إذا ما اشتهيْنا الشّيءَ فيها تيسَّرا

ولسنا نُبالى كيفَ سالتْ نفوسُنا

إذا نحنُ أدركنا الّذى كانَ أجدَرا

وأقبلَ على طارقٍ أولادُ غَيْطَشة ، الّذين اغتصبَ لُذْريقُ منهم المُلكَ بعد موتِ أبيهم ، وسألوه الأمان ، ثمَّ قالوا له :

ـ أنتَ أميرُ نفسِك ، أم فوقَك أمير ؟

قال : « بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأميرِ أميرٌ عظيم » .

وسألوه عنهما ؟ قال لهما :

ـ موسى بنُ نُصَير ، وأميرُ المؤمنينَ الوليدُ ابنُ عبدِ الملك .

فاستأذنوه فى اللّحاقِ بموسى بنِ نُصَيْرٍ بإفريقيَّة ، ليُؤكّدوا ولاءَهم له ، وسألوا طارقا الكتابةَ إليه

بشأنِهم معَه ، وما أعطاهم من عهدِه ، فقبل ، وساروا نحوَ موسى .

٤

بلغَ موسى بنَ نُصَيْرٍ ما صنعَه طارقُ بنُ زِياد ، وتَوَغلَّهُ فى الأندَلُس ، فغضِب ؛ فطارقٌ يسيرُ بالمسلمينَ فى بلادٍ يُحيطُ بها الأعداءُ من كلِّ جانب ، فماذا يفعلُ لو اتّحدَ الملوكُ المُتنابذون ، وأطبَقوا عليه ، وقطعوا على المسلمينَ خطَّ الرَّجْعة ؟ رأى أن يتهيَّأَ للمَسير ، وأن يَسلُكَ طريقًا آخر ، غيرَ الطِّريقِ الّذى سلكه طارق ، ليؤَمِّنَ جَنَاحَه ، وحتّى تضيعَ فرصةُ الأعداء فى الإطباقِ على جيشِ طارق ، الّذى امتدَّتْ خطوطُه ورقَّتْ ، حتّى أصبحَ اختِراقُها أمرًا ميسورا ، لو أُطبقَ عليها من الشَّمالِ ومن الجنوب .

تقدَّمَ موسى واحتلَّ الجبل ، الّذى أُطلِق اسمُه عليه ، وفى ذلك الوقت تلقّاه أبناءُ غَيْطَشَة ، وعرّفوه بشأنِهم ، فأنفذهم إلى أميرِ المؤمنينَ الوليدِ بالشّامِ بدِمَشْق ، وكتب إليه بما عَرَّفَه به طارق من جميل أثرِهم .

واحتلَّ الجزيرةَ الخضراء ، وسارَ معه أدِلاَّءُ يُليان ، يدُلُّونَه على الطّريق ، حتّى بلغَ مدينةَ قَرْمونَة ، وليسَ بالأندَلُس أحصنَ منها ، فاجتمعَ بأصحابِ يُليانَ يرسُمُ معهم خُطَّةَ الاستيلاءِ على المدينة ، قال لهم :

ـ تظاهروا فى اللّيل أنّكم فارُّون من وجهى ، فيفتَحوا لكم أبوابَ الحِصن ، فاقبِضوا على الحُرّاس ، وافتحوا لنا الأبواب .

وفى اللّيل تظاهرَ أصحابُ يليانَ أنّهم فارّون من

أمامِ جُيوشِ المسلمين ، وطَرَقَهُم موسَى بخيلِه ، وفتح الحرَّاسُ لهـمُ الأبـواب ، ليَحموهـم مـن الغُـزاة ، ثـم أغلقُوهـا فـى وجـوهِ العـرب ، ولكنّهـم فوجئـوا بانقِضاضِ أصحابِ يُليانَ عليهِم ، وفتـحِ الأبـوابِ ، فتدفَّقَ المُسلمونَ إلى المدينـةِ تدفُّقَ السَّيْل ، يجمعونَ كلَّ ما يقعُ فى أيديهم من الغنائم .

وتقدَّمَ نحـو إشبيليَة ، فإذا بهـا تخِرُّ صريعـةً تحت قدمَيه ، ومضى من نصرٍ إلى نصر ، حتَّى إذا ما بلـغ مدينةَ مارِدَة ، وكانتْ ذاتَ عزٍّ ومَنَعَـة ، وفيهـا آثـارٌ وقصور ، ومصانعُ وكنائسُ جليلةُ القَدْر ألفَـى أهلَهـا قد تحصَّنوا ، كـان فـى أهلِهـا مَنَعَـةٌ شـديدة ، وبـأْسٌ عظيم ، فنالوا من المسلمينَ دفَعاتٍ وآذَوْهُم ، وعمِل موسى دبَّابـة ، وكـانتْ تُتَّخـذُ مـن جلـودٍ وخشَـبٍ

للحُروب ، يدخُل فيهـا الرِّجـال ، فتُدفعُ فى أصلِ الحِصـن فينقُبونَـه ، وهـم فى جوفِهـا وهـى تقيهِـم ما يرمونَ به مـن فوقِهـم ، ودبَّ المسـلمونَ تحتهـا إلى بُرْجٍ من أبراجِ سُورِ المدينـة ، جعلـوا ينقُبونَـه ، فلمَّـا قلعوا الصَّخر ، ثار بهم العدَوُّ على غفلَة ، فاستُشهدَ بأيديهم قومٌ من المسلمينَ تحتَ تلك الدَّبَّابة ، فَسُمِّىَ ذلك الموضِعُ « برجَ الشهداء » .

ومال أهلُ المدينـةِ إلى السِّـلم ، فبعثـوا رُسُـلَهم إلى موسـى ، فلمَّـا جـاءوا إليـه ، وأذِن لهـم بـالدُّخول ، نظروا إليه ، فإذا هو أبيضُ الرَّأسِ واللحيَّة ، قد زالَ عنـه خضابُـه ؛ وأخـذوا يُفاوِضونـه ، فلـم ينتهُـوا إلى رأى ، فخرجوا من عنده .

وبعدَ أيّام رأَوا أن يُفاوضوه ثانِيـة ، فجـاءوا إليـه ،

فإذا هو قد حمَّر لحيتَه بالحِنَّاء ، فعجبوا من ذلِك ، وأخذوا يُفاوِضونَه ، ولم ينتهُوا إلى رأى ، فانصرفوا .

وعاوَدوه بعد ذلك ، فإذا هو قد سوَّدَ لحيته ، فازداد تعجُّبهم منه ، وكانوا لا يعرِفون الخِضابَ ولا استِعماله ، فلمَّا عادوا إلى قومِهم ، قالوا لهم :

ــ إنَّا نُقاتلُ أنبياء ، يتخلَّقونَ كيف شاءوا ، ويتصوَّرُون فى كلِّ صورةٍ أحبُّوا ، كان ملكُهم شيخا ، فقد صارَ شابّا ؛ والرَّأىُ أن نقارِبَه ، ونعطِيَهُ ما يسألُه ، فما لنا به طاقَة .

فأذعنوا عندَ ذلك ، وأكملوا صُلحَهم مع موسى ، على أنّ أموال القتلَى وأموالَ الهاربينَ إلى جِليِّقة ، وأموالَ الكنائِسِ وحُلِيَّها للمُسلمين . ثم فَتحوا له المدينةَ يومَ الفِطر ، سنة أربعٍ وتسعينَ من هجرةِ

الرسولِ الكريم ، فكان ذلك اليومُ أبهجَ عيد .

٥

ثارَ أهلُ أشبيليَّةَ على المسلمينَ بها ، فقتلوا منهم نحوَ ثمانينَ رجُلا ، وأتى فَلُّهُم الأميرَ موسى وهوَ بمارِدَة ، فلمَّا أن فتحَها ، وجَّهَ ابنَه عبد العزيزِ بنَ موسى في جيشٍ إليهم ، فأعادَ فتحَ إشبِيليَّة ، وقتلَ أهلها . وأقامَ عبدُ العزيزِ بأشبِيليَّة ، وتوجَّه الأميرُ موسى يُريد طلَيْطِلَة .

وبلغَ طارقًا خبرُ وفودِ موسى ، فخرجَ إليه يستقبلُه في وجوهِ النَّاس ، فلمَّا وقعتْ عينُ طارقٍ على موسى ، نزلَ إليهِ إعظامًا له ، فوبَّخه على استبدادِه ، وعلى توغُّلِه بالمُسلمينَ في بلادِ الأعداء ،

دونَ رأيهِ ، وساروا إلى طلَيْطِلة ، فطالبَه موسى بأداء ما عندَه من مالِ الفَيءِ وذخائرِ المُلوك ، فأتاهُ طارقٌ بها .

كان موسى أميرًا عظيما ، وكان طارقٌ قائدًا عظيما ، فسَرعان ما انقشَعَ غضبُ موسى ، واصطَلَحَ مع طارق ، وأظهرَ الرِّضا عنه ، وأقرَّ مُقدِّمَته ، وأمرَهُ بالتّقدُّمِ أمامه فى أصحابِه ، وسار موسى خلفَه فى جُيوشِهِ ، وأَوْغلا فى البلاد ، لا يُمرّانِ بموضعٍ إلاّ فُتحَ عليهِما ، وقد ألقَى اللّهُ الرُّعب فى قلوبِ أهلِ البلاد ، فلمْ يعارضْهما أحدٌ إلاّ بطلبِ صُلح .

وظهرَ المُسلمونَ فى تقدُّمهم ، حتّى بَلغوا فرنسَا ، وانتهَوْا إلى وادى دُورْدونى ، ووصلُوا إلى أُربونَة ، فارتاعَ شارْلُ مارتِلْ ملِكُ فرنسا ، وانزعج لدُنوِّهِم

من ملكِه ، فحشدَ لهم ، وخرج عليهِم فى جمعٍ عظيم ، فلمَّا دنا من حصنِ لُودون ، وعلِمتِ العربُ بكثرةِ جموعه ، زالتْ عن وجهِه ، وأقبل حتَّى انتهَى إلى صخرةِ إينيون ، فلم يجد بها أحدا ، وقد عسكر المسلمونَ قُدَّامه ، فيما بين الأجْبُلِ القريبةِ لمدينةِ أَربونة ، وهمْ فى غفلة ، لا عُيونَ لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتَّى أحاط بهم شارْلُ مارِتل ، فقاتلوا قِتالاً شديدًا ، واستُشهِد فيه جماعةٌ منهم ، وحمل كثيرٌ منهم على صفوفهِ ، فاخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحُصونها ، فنازلهم بها أيَّاما ، أُصيبَ له فيها رجال ، وتعذَّر عليه المُقام .

وتيقَّن شارْل مارِتلْ أنَّ مددَ المُسلمين سَرعان مايهُبُّ لنُصرةِ إخوانِهم ، فدبَّ الذُّعرُ فى قلبِه ،

وانسحبَ إلى فرنسا ، وقد راحَ يُقِيمُ الحُصونَ فى وجهِ المسلمين .

وجمع موسى بنُ نُصَيْرٍ الجمُوع ، وخرج على باب الأندَلس ، الذى فى الجبلِ الحاجزِ بينَها وبينَ فرنسا ، فاجتمعتِ الإفرنجُ إلى شارْل مارْتل ، وقالوا له :

ـ ما هذا الخِزْىُ الباقى فى الأعقاب (الذرِّيَّة) ؟ كنّا نسمعُ بالعَرَب ونخافُهم من جهةِ مطلعِ الشّمس ، حتّى أتوْا من مغربِها ، واستوْلَوا على بلادِ الأندَلُس ، وعظيمِ ما فيها من العُدَّةِ والعَدَد ، بجمعهِم القليل ، وقلّةِ عُدَّتِهم ، وكونِهم لا دُروعَ لهم .

فقال شارلُ مارْتل : « الرَّأىُ عِندى ألاّ تَعْتَرِضوهم فى خَرْجَتِهم هذه ، فإنّهم كالسَّيْل يحمِلُ من يُصادِرُه ، وهم فى أقبالِ أمرِهم ، ولهم نِيَّاتٌ

تُغْنى عن كـثرَةِ العَـدَد ، وقلـوبٌ تُغْنـى عـن حَصانـةِ الدُّروع ، ولكن أمهِلوهـم حتـى تمتلـئَ أيديهـم مـن الغنائم ، ويَتَّخِذوا المسَاكن ، ويتنافَسوا فى الرِّياسة ، ويستعينَ بعضُهم على بعض ، فحينئذٍ تتمكّنونَ منهـم بأيسر أمر .

وانتظرَ موسى بـنُ نُصَيْرٍ جيوشَ شارْلِ مـارْتِل ، ولكـنَّ شـارلَ آثَـرَ أن يـترَيَّث ، فعـاد موسـى ليفتَـحَ ما بَقِيَ من بلادِ الأندلُس ، شامخًا بمجده ، مسرورًا بما آتاهُ اللّهُ من فتحٍ مبين .